عفيفة اسكندر وعبد المجيد لطفي

يعرض القاص الراحل عبد المجيد لطفي في القسم الثالث من كتابه (عفيفة) لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية للطبقة المثقفة البغدادية وعلاقات الفنانة عفيفة اسكندر بالوسط الثقافي هواة ومحترفين .

المحرر

القسم الثالث

يشعر المرء حين تتفتح أمامه آفاق الحياة الكبيرة النشيطة الملونة في الغرب انه في قفص وان عليه ان يرى تلك الالوان الجديدة من الحياة التي لم يألفها وتتوق نفسه الى رؤية افراح الاخرين ومسراتهم ومشاكلهم عن طريق معاشرتهم والاختلاط بهم ومواكبة نظم حياتهم وتقاليدهم حيث هي ...

ان الافلام السينمائية التي تعكس بعض صور الغرب ومظاهر حياته ونشاطه والمجلات المصورة والمقالات الكثيرة الممجدة للديمقراطية والحرية بمعانيها الواسعة- كل ذلك يلهب الذهن الى زيارة الغرب والتطلع على الحياة الجديدة هناك...

ويبدو لي ان عفيفة شعرت مثل هذا الشعور حين فكرت في الذهاب الى اوربا فذهبت اليها، الى مدنها الرئيسة اكثر من مرة.. ولم تكتف باوربا فزارت امريكا التي كانت الحياة المادية الباذخة فيها من الحوافز التي تدعو كل انسان الى زيارتها ما استطاع الى ذلك سبيلاً..

فلما عادت عفيفة من سفراتها وجولاتها في امريكا واوروبا اصيبت الى ردح من الزمن بشيء من رد الفعل الذي يجعل الانسان ينكمش قليلاً ويحدد من غلواء كبريائه ..

والحقيقة ان تلك الجولات قد افادت عفيفة فائدة كبيرة اذ ارتها الحياة بمعانيها الجديدة..

ولابد انها اعجبت- لا بالحضارة التي تبنى وتخرب وحسب، وانما باناس تلك البلدان، أولئك الذين ينشئون للعالم كل ما يعود عليه بالنفع والضرر معاً...

واعجبت بالجمال حيث تخلقه الرياضة وتنعشه الثقافة العامة وروح المواطنة الكريمة عند جميع النساء وفي الغرب الى جانب مواطن القبح توجد مواطن كثيرة للفتنة . فالجمال الانثوي هناك كما نعرف، كالألواح الخالدة تنتقل من جيل الى جيل لتزداد قيمة ورونقاً!..

ولا ادري مدى اتصالها بالحياة الفنية في اوروبا لاسيما في فرنسا وفي باريس بصورة خاصة حيث زارتها أكثر من مرة على انني اعرف انها كانت متحمسة لزيارة اوكار الوجوديين أولئك الذين الهبوا خيالها بتصرفاتهم الشاذة وفلسفتهم الضاحكة الساخرة التي لا رابط لها من تقاليد الإنسانية وتراثها الأخلاقي.

على انني واثق ان عفيفة لفترة من الزمن ادركت ان الجمال ليس هو كل ما يجب ان تفتخر به المرأة او الفنانة فان خوارق الآيات من الجمال الإنساني ارق وارشق الفتيات هناك يتزاحمن من اجل صحبة رجل من عامة الناس في سبيل عشاء ا وقضاء ليلة في غرفته..

فلقد كان الجمال- في السنين التي تلت الحرب- كما نعلم جميعاً- ارخص شيء ممكن نواله بثمن في تلك البلاد بسهولة .. غاية في السهولة!

فهل جرتها اعنى- هل أذعنت عفيفة- لحين من الزمن لفلسفة الوجوديين ؟ وهل رات فيها خلاصاً ولو عن طريق المخادعة من الالام والهموم والعودة الى الطبيعة التي لا تعترف بقيود الناس وما في أنظمتهم من حدود ؟.

على انني اعرف ان الوجودية ذات إغراء شديد كفلسفة تبرر للناس تصرفاتهم الشاذة او التصرفات التي تلجئهم ظروفهم اليها وان كل إنسان ضجر من حياته ومتبرم بها يستطيع ان يتخذ منها وكرا يلوذ به بين الفينة والأخرى من دون ان يشعر بحرج تجاه نفسه !

وكانت عفيفة قبل ان يتسع افق الحياة وفهم معانيها واشتباكات مصالحها في ذهنها، كانت قليلة الاحتفاء بالأدب وبالصحافة حتى رأت ان الادب كفن انساني يمجد الجمال والفضيلة ويدعو الى الانسانية الموحدة في نظام رحب والى الاخوة، شيء لازم للفنانة فبدأت تقرأ وتقرأ كثيرا.

إنني لا أريد ان اطيل في هذا الباب حول ما تقرأه عفيفة فانا أتحدث الان عن اثر الجولات التي قامت بها الى الخارج والمؤثرات التي أفادت في صقل مواهبها ومشاعرها..

والحقيقة انه لمن الصعب ان نقطع برأي حول ما اسبغت تلك الجولات والسياحات على مواهبها ولكننا لن نخفق اذا بحثنا اثر ذلك في مشاعرها وتفكيرها..

اذ انها وجدت ان الحياة ارحب واوسع من الذات وعبادتها وان من عظمة الغرب، روح الالفة والمعاونة ومشاركة الاخرين في نكباتهم وهمومهم .

وفي اعتقادي - ان هذه الفضيلة التي بلورتها سفراتها الى الغرب، وأعنى بها نكران الذات الى حد كبير والتفكير بالآخرين او بالأخريات على الأخص لشيء له قيمته في حياة هذه الفنانة.

لقد عادت وهي تشعر ان الحياة لا تكون ذات مجد لاحد اذا لم تسطع فيها روح الرحمة والمعاونة وان الفنانة هي اولى الناس بتخفيف آلام الآخرين وشد عزائمهم وإدخال الأمل والمرح الى قلوبهم..

ومن اثار هذه الهزة التي اهتزت لها مشاعرها، رأينا الانعكاس الصريح لها في بغداد.. حيث تجد وبسهولة ان عفيفة تعيل عدداً من النساء اللواتي افل نجمهن وكن شيئاً في عالم الفن في زمنهن !

وتجرى على بعضهن جراية خاصة من دون ان تقيم حول ما تفعل ما يقيمه غيرها من الدعاية الفارغة والمفاخرة الرخيصة..

ان عفيفة في هذا الحقل شيء جدير بالاكبار، وانها لتثبت بصراحة قاطعة- ان النجوم لا تسقط من سماء الناس دفعة واحدة..

يروى عن الكاتب الفرنسي اناتول فرانس انه كان يأمر بحرق بريده اليومي فيلقى جميع ما يرده من الرسائل - في المدفأة- ولا يستبقى سوى رسالة واحدة كانت ترده منذ عهد بعيد يومياً وليس فيها غير هذه العبارة "اعرف نفسك ايها المغرور"..

وكانت تلك الرسالة ذات اثر في حياة انتول فرانس واخلاقه فلم يركبه الغرور ولم ينطلق مع شهرته يملأ جوانبه الكبرياء فقد بقى انساناً بسيطاً حلو المعشر محبا للفكاهة طبيعياً في نظرته للامور.

وبريد عفيفة مشحون برسائل عديدة من اناس تختلف أذواقهم وأخلاقهم ومشاربهم وثقافاتهم وتجمع الرسائل التي ترد اليها كل انواع المتناقضات.. فمن رسائل الغرام الحاد والتوجع الى رسائل اللهو والسخرية الى رسائل التولة الى عروض للزواج.. ثم رسائل من نوع آخر فيها شيء من ذل الحاجة وهوان الطلب..

قالت عفيفة ذات مرة - انها ظلت لاكثر من سنة تتلقى رسائل كل يوم من رجل مجهول يضع في تلك الرسائل كل أوجاعه وحنانه وحبه ونصائحه المتوالية ثم اعتذاره في كل مرة باعماله الكثيرة التي تحول دون ان يتعرف عليها..

ولقد اعجبت عفيفة ببعض الرسائل المطولة التي كانت ترسل اليها، ذلك ان تلك الرسائل لم تكن آيات بث وشكوى وحسب وانما كانت مطارحات أدبية ومساجلات في شؤون الحياة ومحاولات عما يصادف المرء من مشاكل.

وقد كتبت انا الى عفيفة أكثر من رسالة مضمخة بعواطف الحب وفيها ذلك الانين الهادئ الذي يخرج من قلوب الكهول في ذكريات صبواتهم الراحلة.. وقد كنت اظن ان رسائلي ستكون ذات قيمة لديها حتى علمت ان عفيفة لا تحتفظ بالرسائل التي تصل الى يديها وأقول الرسائل التي تصل لان هناك اما رقيبة على البريد تصادر كل رسالة طويلة مزعجة رفقاً بعفيفة وتخفيفاً عما تكابده في الحياة من الثقلاء.

لم استطع ان أدرج شيئاً من الرسائل التي ترد اليها لان عفيفة لا تريد التشهير بمن يحبها وان كتم اسمه. ذلك ان رقة عواطفها تجعل من هذه المسألة اعتداء مباشراً على أسرار الآخرين.

ولسنا في الواقع بحاجة ماسة الى شيء من تلك النماذج فرسائل الشبان المراهقين وطلاب المدارس مليئة بالآهات والآلام ورسائل المثقفين مملوءة بالحكمة وكبرياء الأدب والتهرب من العروض السخية!

ثم رسائل الادباء وهي تفرش الأرض وروداً تحت قدميها وتلقي النجوم تيجاناً وعقوداً فوق رأسها..

وهناك القصائد باللغتين العربية والعامية، قصائد في مدحها والثناء على جمالها وكياستها وقصائد ركيكة يريد أصحابها ان تتغنى بها، ومقطوعات يسرقها الشبان من الكتب والدواوين الوجدانية ثم الابوذيات والمنلوجات والمحاورات وهي تتراوح عادة بين الرصانة والركة وتتسم بالمرونة والخور فلا تجد عفيفة فيها غنية ولا بغية.

حتى انها لتأخذ اكثر ما تغنيه بالعربية الفصحى من بطون الكتب والدواوين القديمة، لان ما يصل اليها من الشعر الحديث اما انه يكون ركيكاً تافه المعنى او انه يكون منسوجاً على منوال لا ينسجم ولا يتفق مع الالحان او يستعصى على الالحان القصيرة التي تبدع عفيفة في أدائها أيما ادياع.

قلت - لها ذات مرة ان لي حكماً قد يكون قاسياً على منلوجاتك ان بعضاً منها ذو معان اقرب الى السخف..

قالت : ادري هذا ولكن ما العمل وهذا هو ما يصلني وهو أحسن ما ينظم في هذا الحقل !

والحقيقة ا ن عفيفة لا تلام على ما تغني من اشعار فهي الى جانب كونها- خير ما يقدم اليها- تأخذ بتشذيب الكثير منه وتحاول ان تبرئه من الاسفاف وما قد يخدش السمع او الذوق.

اما الحانها فليست مسؤولة عنها ايضاً لانها لا تجد غير هذا العدد المحدود من الملحنين الذين يسطون على الألحان القديمة او الالحان التركية او المصرية ويقدمون لها الحاناً هجينة لا ذوق فيها ولا رابط يربطها بأذواق الآخرين.

وعفيفة سخية بالدفع لهؤلاء الملحنين وانها اكثر الفنانات تجديداً والصرف من اجل هذا التجديد الذي لا يأتي كله على المرام.

ومع ان المنلوجات في الأساس يجب ان تحمل طابعاً انتقادياً لخفتها وسهولة تداولها فان منلوجات عفيفة تفتقر الى هذا العنصر ولا ادري اهذا هو ذنبها ام ذنب من يضع لها تلك المنلوجات؟ على انني ادري ان عفيفة تحاول ابعاد الانتقاد السياسي من أغانيها لتسلم من النقد او خوفاً من تجريح احد من الساسة وبعضهم من اصدقائها وممن تعجب بشخصياتهم وان كانت لا تؤمن بتصرفاتهم واعمالهم السياسية.

ان مساهمة منلوجات عفيفة في حقل الاصلاح الاجتماعي ضئيلة فهي اشبه بالسوانح العابرة مع انها كانت تستطيع- بقليل من الشجاعة- ان تجعل أغانيها على كل فم ومقبولة في كل وسط..

لقد كنت أتحدث عن بريد عفيفة ولكنني وجدت ما ذكرته كبير العلاقة بهذا الفصل.

ان على عفيفة كفنانة - والفنان ليس آلة من آلات التسلية- بل هو موجه ومنافح عن الشعب ومكافح ضد الفساد والخيانة والجشع.. ان عليها ان تغير شيئاً من اتجاهها الحالي فتجعل لمنلوجاتها طابعاً من القوة للدفاع عن تقاليد هذا المجتمع والتعبير بها عن آلامه.

وهذا هو الفراغ البارز الذي يراه كل انسان ثاقب البصر فيطالبها بإخلاص حقيقي لسده ولو بشيء من خسارة تتأتى من تجافي سياسي صديق او رجل اعمال طماع وما اكثر ما تعرف عفيفة من هؤلاء.

الى فولكلوريي العراق

لذة الاكتشاف

من المحرر

بات واضحاً لكل متتبع ان الدراسات الفولكلورية تعد من الدراسات المتداخلة مع علوم اخرى مثل الطب والتاريخ والانتروبولوجي والهندسة والبايولوجي وغيرها من العلوم الإنسانية والتطبيقية والاجتماعية، من هنا تأتي أهمية دراسة الثقافة الشعبية وحيويتها، إذ انها اضافة الى ميدانها العلمي المحدد ومنهاجها المعتمد على نظرية من نظريات اللفولكلور- الثقافة، تستفيد من مناهج هذه المعارف والعلوم، وقد افاد هذا التداخل الدراسات الفولكلورية واغناها.

ان دراسة الازياء الشعبية تقودنا الى دراسة العادات والتقاليد وتربطنا بالمراحل التاريخية التي انتجت هذا الزي او طورته او منعت زياً اخر وتقودنا الى دراسة العلاقة بين شعب واخر بسبب تأثيرات البعض بالبعض الاخر على صعيد الزي والطعام و.. الخ.

ويذكرنا الطعام هنا بفولكلورية المطبخ وتوابعها فعند دراسة الطبخات، لابد من معرفة المواد المكونة لهذه الوجبة او تلك، وقد بات معروفاً ان الطماطة لم تكن موجودة في العراق منذ أكثر من مائة وخمسين عاماً وان طعم الحساء الحريف او الحامض كان يتم بحامض الرمان، وان الشاي كان شيئاً غير مألوف الاستخدام لأنه لم يكن موجوداً قبل مئة عام، كما ان دخول الدهن النباتي الى المطبخ العراقي كان متأخراً، فحتى عام ١٩٥٠ كان الطبخ بالدهن الحيواني (الحر) هو السائد.. وهكذا تتسلسل المعلومات ويستفاد من تداخل الصناعة والحركة التجارية بوضع المطبخ.

واذا اريد انتاج بحث عن دورة الحياة فان ذلك يتطلب دراسة تفصيلية للعادات والتقاليد عموماً ولأسرار المعتقد الشعبي ومعرفة دقيقة بعلم النفس الاجتماعي وهكذا.

ان الملذ في هذه الدراسات انها تعين الباحث على اكتشاف تداخل العلوم والمعارف وتقود الى نتائج جديدة بعد تدقيق في البحث وطول اناة وصبر لايعرفه الا من كابد مهمة الدرس الفولكلوري وعشقها، وهو امر يعرفه فولكلوريو العراق الاماجد. فتحية لهم وهم يشدون أزر بعضهم ويدخلون ارض البحث بلا معين الا العلم والصبر ولذة الاكتشاف.

نحو تشكيل اللجنة الوطنية لحماية الموروث الشعبي العراقي

((قدم السيد غسان العلوجي المدرس في المعهد الحرفي هذه الورقة الى ورشة التراث الشعبي في مؤتمر المثقفين ويسرنا نشرها لما لها من علاقة وطيدة بمشكلات عملية صياغة البنية الحرفية والنظرية الشعبية وبعض مشكلات التراث الشعبي الادارية))

ثقافة شعبية

غسان عبد الحميد العلوجي

كثيرا ما عانى التراث الشعبي العراقي ومن خلال مؤسسته الوحيدة (مديرية التراث الشعبي) وعلى مدى عقود من إهمال وتهميش وطمس غير آبه بأهمية التراث الشعبي العراقي، لقد وصل الحال الى اعتبار مديرية التراث الشعبي مجرد قسم صغير.

ان حال التراث الشعبي من خلال مديرية التراث الشعبي اصبح في وضع خطر من خلال عدم الاهتمام والتهميش للتراث الشعبي العراقي وكذلك سلبية القائمين على دوائر التراث الشعبي.

لقد اصبح التراث الشعبي ومن وجهة نظر مديرية التراث عبارة عن سجادة رديئة صنعةً وحرفةً او مزهرية فخارية لا علاقة لها بالتراث الشعبي او (بيجاما) مقلمة للاطفال.

فأي تراث هذا تحفظه وتصونه هذه المؤسسة متناسين ان تراثنا جاء من خلال بناء زمني لنشاط انساني عراقي متراكم انتقل بفعل تطوري من الحاجة اليومية الى رمز وطني منغم بجمالية عفوية.

ومن خلال هذه المعطيات جاءت الحاجة الى تشكيل جديد يعنى ويهتم بالتراث الشعبي العراقي وذلك من خلال اقتراحي بتأسيس مؤسسة تأخذ على عاتقها امور التراث الشعبي العراقي بجميع تفاصيله تحت احدى هذه المسميات:

❖اللجنة الوطنية لحماية الموروث الشعبي العراقي.

❖المركز الوطني لحماية الموروث الشعبي العراقي.

❖المركز الوطني للفلكلور العراقي. ليكون بديلاً عن مديرية التراث الشعبي

هدف المؤسسة المقترحة توثيق التراث الشعبي العراقي وحفظه من الضياع والنسيان وكذلك تطويره وفق الاسس الصحيحة. وكذلك خلق (كوادر) حرفية لاجل استمرارية العمل الحرفي الشعبي، والعمل على اقامة معارض دولية واقليمية ووطنية لجعل التراث الشعبي واجهة مشرقة تعكس وجه العراق الجميل في ارجاء العالم.

مهام المؤسسة المقترحة

❖انشاء متحف خاص بالفلكلور العراقي ليكون مرفقاً توثيقياً وسياحياً.

❖انشاء مركز وطني للبحوث والدراسات الفلكلورية مهمته توثيق المادة التراثية بعد تحليلها.

❖احتضان الحرفيين في مجال الصناعات الشعبية وذلك بأقامة جمعية خاصة بهم لأجل تواصل العمل الحرفي وتذليل المعوقات امام ديمومة استمرار العمل الحرفي وكذلك دعم الحرفيين وتعريفهم بحقوقهم وواجباتهم تجاه حرفته على وفق نظام داخلي.

❖التعاون مع المنظمات ذات العلاقة والمراكز العربية والدولية ذات الاختصاص من اجل الدعم المادي واكتساب الخبرات والاستفادة من الاتفاقيات المبرمة مع هذه المنظمة.

❖اصدار مجلة فصلية متخصصة بالحرف والصناعات الشعبية العراقية

❖انشاء معهد او اكاديمية (بديلاً عن المعهد حالياً) وبالتعاون مع منظمة دولية او اقليمية شرط ان تتوخى في تشكيله الاطر الاكاديمية وان يكون معترفا به دولياً ومهمته رفد العمل الحرفي الشعبي بملاكات جديدة وتستحدث في المعهد اقسام جديدة (بموجب نظام داخلي جديد ومتكامل).

وكذلك امتيازات خاصة للطلبة. اما التدريسيون المدربون فهم من (الاسطوات) المتبقين بعد ان كانوا حكراً على (ديوان الرئاسة) اما المدرسون الاكاديميون فيرسلون في دورات تدريبية وتعريفية لمدارس ومعاهد واكاديميات التراث في الدول الاخرى.

هيكلية اللجنة

❖تتكون اللجنة من المهتمين بالتراث الشعبي العراقي.

❖ينتخب رئيس اللجنة من قبل الاعضاء عن طريق الترشيح.

❖سكرتير اللجنة ينتخب عن طريق الترشيح من قبل رئيس اللجنة والاعضاء.

❖المتبقون يكونون اعضاء اللجنة.

❖ينبثق من اللجنة رؤساء لجان فرعية او احد المختصين من خارج اللجنة بعد موافقة رئيس واعضاء اللجنة.

عمل اللجان الفرعية

❖يكون رئيس اللجنة مختصا في مجال عمله.

أ . لجنة التراث الشعبي المسرود والمتداول لفظياً

تكون مهمتها جمع القصص الشعبية والمفردات القديمة المتداولة وغير المتداولة وكذلك المستحدثة على نطاق الشارع اضافة الى الاحاجي الشعبية وتوثيقها.

ب . لجنة الشعر الشعبي

مهمتها جمع الشعر الشعبي المدون وغير المدون وجمع المطبوعات الخاصة بالشعر الشعبي من جميع مناطق العراق.

ج . لجنة الطب الشعبي والاعشاب الطبية والسحر و الغيبيات

مهمتها جرد بأسماء الاطباء الشعبيين وامتيازاتهم وكذلك مزايا الاعشاب المجربة اما بالنسبة للسحر والغيبيات فتوثق اسماء السحرة وامتيازاتهم وطبيعة عملهم والمواد المستعملة وانواع الاوفاق والطلاسم.

لجنة الازياء الشعبية

ومهمتها جمع صور ومواصفات او (الزي الشعبي) ان امكن وحسب جغرافية المكان وكذلك التفاصيل الدقيقة في الزي من تطريز او ما شابه وتحليلها ثم توثيقها.

هـ . لجنة العادات والتقاليد الاجتماعية بكل تفاصيلها وكل مناطق العراق.

و . لجنة الصناعات الشعبية.

ز لجنة المأكولات الشعبية

ومهمتها جرد وتوثيق الاطعمة الشعبية القديمة وطرق عملها واسماء الاكلات حسب مناطق العراق.

لكل لجنة امكانية اقامة مهرجان خاص بها او مهرجان جماعي لكل اللجان او بعضها محلية كانت او دولية من خلال مشاركة العراق فيها.

ستديو ثقافة شعبية

امرأة من دارفور بزيها الشعبي وعصاها التي يحمل رأسها تاجا من الزخارف الشعبية

مقهى الشابندر بغداد

جنوبية عراقية في جانب من بيتها